بعض معاني الشّعر الجاهلي

سلوى فؤاد فارس*

- مقدمة

كان العرب في جاهليّتهم بدوًا، لا يخضعون لنظام، ولا يدينون لحكومة، ولا يربطهم قانون، ولا ينتظمهم مجتمع. وإنّما كان مجتمعهم القبيلة والخيمة، وقد فرضت عليهم طبيعة أرضهم القاحلة أن يعيشوا على رعي الإبل والأغنام يتتبّعون بها مواقع الغيث ومواطن الكلأ، ينتقلون بينها، ويسيمون ماشيتهم فيها. فإذا أخلفت السماء، وأمحلت الأرض، أكل بعضهم بعضًا بالإغارة والغزو، ودفعهم الجذب الى الحرب. كذلك كان من دأبهم النفرة من العار، والنهضة لحماية الجار، والحرص على الأخذ بالثأر والإعتزار بالعصبيّة، والإعتزاز بالقرابة الواشجة، والمفاخرة والمناثرة، والإباء والشمم.

فالعرب بطبيعتهم أمّةٌ مغالبة مجالدة، مساورة معاندة، لا ترضى بالضّيم ولا تقيم على الذلّ، ولا تغضي على الهوان. إنها مآثر الجاهليّة، ومكارم الأخلاق السنيّة (خفاجي، 1973، ص. 92).

وللعرب كثيرٌ من الوقائع التي تركت أثرًا واضحًا في الأدب، بما تهيج من عاطفة، وتبعث من شعور، وتثير من شاعريّة. وكان الشعراء والخطباء من وراء الفوارس يذكون حميّتهم، ويلهبون شجاعتهم، ويصفون خيلهم وسلاحهم، ويشيدون ببطولاتهم ومواقفهم، ويندبون بقوافيهم الباكية صرع الأيام، ويحرّضون على الثأر والإنتقام، وقد ينفرون من الحرب وويلاتها، ويحملون لقبائلهم غصن الزّيتون (خفاجي، 1973، ص. 94).

ويتّفق الأدباء على أنّ الكلام لا يُسمّى أدبًا، ولا يمتّ الى الفنّ بنسب، إلا حين تجتمع له روعة التأثير وبراعة الفكرة ودقّة المعنى، وجمال العبارة ولطف الأسلوب وإشراقه، فالشّعر إذًا هو كلام جيّد، بليغ، والذي يعتمد على الوزن والقافية، ويُعدّ اجمل وأسمى أنواع الكلام، وألوان البيان، لما يحتويه من بهاء يأخذ الألباب، وجمال يستهوي الأفئدة. فالمعنى الشعري لا بدّ أن يتأنق في صوغه الفكر، ويطرّز حواشيه الخيال، وأن تحشد له الألوان التي تزيد بهجته، وتسيغ قبوله.

وهناك فرق بين المعنى الذي تؤدّيه قطعة من النّثر، والمعنى الذي يحمله بيتٌ من الشعر. إذ اعتماد الأول على العقل يخاطبه، والحجّة يسوقها، والمعنى يحتمي به، واعتماد الثاني على الخيال يوقظه ويذكيه؛ والشعور يثيره، والعاطفة يلهبها. والمرء حين يصغي الى معنًى تجود به قريحة شاعر موهوب، تنقاد له مشاعره، وتخبت جوارحه، وقد تهيج عبرته، وتجتمع

شجونه، وتشتدّ لوعته، فيثير الحزن الشّديد، ويبعث الألم المتّقد، ويفعل في تهييج الشجون وإرساله العبارات ما لا يفعله كتّاب (خفاجي، 1973، ص. 180).

ولعلّ أول ما يلاحظ على معاني الشاعر الجاهلي أنها معانٍ واضحة بسيطة ليس فيها تكلّف ولا بعد ولا إغراق في الخيال سواء حين يتحدّث عن أحاسيسه أو حين يصوّر ما حوله في الطبيعة، فهو لا يعرف الغلوّ ولا المغالاة، ولا المبالغة التي قد تخرج به عن الحدود المعتدلة. ومرجع ذلك في رأينا أنّه لم يكن بفرض إرادته الفنيّة على الأحاسيس والأشياء، بل كان يحاول نقلها الى لوحاته نقلًا أمينًا، يبقي فيه على صورها الحقيقية دون أن يُدخل عليها تعديلًا من شأنه أن يمسّ جواهرها. ومن أجل ذلك كان شعره وثيقة دقيقة لمن يريد أن يعرف حياته وبيئته برملها ووديانها ومنعرجاتها ومراعيها وسباعها وحيوانها وزواحفها وطيرها. وعرف القدماء ذلك، فكلّما تحدّثوا عن عادات الجاهليين وألوان حياتهم إستشهدوا بأشعارهم، وحيثما كتب الجاحظ كتاب الحيوان وجد في هذه الأشعار مادّة لا تكاد تنفد في وصفه ووصف طباعه وكل ما يتّصل به من سمات ومشخّصات. ومعنى ذلك أنّ الشاعر الجاهلي لم يغتصب الحيوان لنفسه، فيسكب عليه من خياله ما يحيله عن حقيقته، ونستطيع أن نلاحظ ذلك في وصفه للمعارك الدائرة بينهم، إذ نراه يعترف بهزيمة قومه إذا هُزموا، وفي أثناء ذلك لا يبخل على أعدائه بوصف شجاعتهم وبلائهم في الحروب، ولهم في ذلك قصائد تُلَقَّب بالمنصفات (ضيف، 1960، ص. 2019).

وكانت تظهر معانيهم محدّدة تحديدًا يبرزها الجاهلي في أتمّ ما يكون من ضياء، ومن ثمّ تبدو في كثير من جوانبها كأنّها شيء راسخ ثابت. ويتّضح ذلك في حِكَمِهم التي تُصوِّر أحكامًا سليمة وخبرات صائبة كما يتّضح في جوانب كثيرة من تأنيبهم ومديحهم وغزلهم وحماستهم، إذ يُقدِّم الشاعر المعاني منكشفة كأنها أشياء صلبة محسوسة، فهي حقائق تُسردُ سردًا وقلّما شابها الخيال، إلا ليزيدها إمعانًا في الوضوح والجلاء. واقْرأ في أشعاره فستجد معانيه حسيّة، واضحة، لا يقف بينك وبينها أيُّ غموض أو أشراك ذهنيّة تضلُّ في ممرّاتها وشعَبها الفكريةّ، إذ يعرض عليك هذه المعاني دائمًا مجسّمة في أشخاص أو في أشياء. وخُذ فضائلهم التي طالما أشادوا بها في حماستهم ومراثيهم ومدائحهم، فتراها تُساقُ في مادّة الإنسان الحسيّة، فهو لا يتحوّل بها الى معنىً ذهنيّ عام يصوّر إحساسه بالبشريّة جميعها في هذه الفضيلة أو تلك، فالكرم مثل البخل والوفاء وغيرها من الفضائل والرذائل لا بدّ أن يقترن بشخص معيّن يتحدّثون عنه (ضيف 1960، 220).

- **الكرم والوفاء**

الوفاء: على أنّ العرب قلّما كانوا يحتاجون الى حاكم يفصل في الخصومة بينهم، لما فتروا عليه من المناقب الجميلة التي تقوم فيهم مكان الحاكم الصارم، وتنزّههم عن ارتكاب الدنايا مما يغنيهم عن

القضاء. وسيّد هذه المناقب "الوفاء"، لأنّه إذا تأصّل في أمّةٍ أغناها عن القضاء والحكومة، إنما تقضي بين الّذين لا يعرفون الوفاء. وكان الوفاء متمكنًا في خُلُق العربي، ويزيد تمكنًا فيه كلّما بَعُدَ عن المدن وأوغل في الصّحراء، لأنّ الغدر والنكث لا يعيشان إلا في القصور الشمّاء في ظلّ الحدائق الغنّاء.

وترى الوفاء مطبوعًا في أقوال أهل البادية وأشعارهم وأمثالهم، ويتجلّى في عاداتهم وأخلاقهم وفي سائر أعمالهم، وهو فيهم سجيّة وفي سواهم صناعة وتكلّف. وحكاية حنظل الطائي والنعمان إبن المنذر تمثّل هذه الخلّة أحسن تمثيل، فإنّ حنظلة وعد النعمان بالرجوع بعد عام لاستقبال الموت، فطلب النعمان مَن يضمنه فضمنه شريك بن عدي، ولم يقدم شريك على ذلك إلا وهو يعتقد صدق البدو لاستشهادهم به. وقد وَفَى حنظلة فجاء في الوقت المعيّن، لا جند تقوده ولا حرّاس تغفره، مما حمل النعمان على العفو عنه، وقصّته مشهورة (زيدان، لا تاريخ، المجلّد الثاني، ص. 308).

وأغرب من ذلك وفاء السموأل (صموئيل) بن عادياء، وكان امرؤ القيس الكندي قد استودعه سلاحًا وأمتعة تساوي مالًا كثيرًا، وسافر الى بلاد الروم ومات قبل رجوعه، فبعث ملك كنده يطلب الأسلحة والأمتعة المودعة عند السموأل فلم يسلّمها. ولما ألحّ عليه أجابه: "لا أغدر بذمّتي ولا أخون أمانتي ولا أترك الوفاء الواجب عليّ". فجرّد الملك عليه جيشًا وحاصره في حصنه، فوقع إبن السموأل أسيرًا عند الملك، فهدد السموأل بقتل ابنه إن لم يسلّم الوديعة، فأبى التسليم وقال: "ما كنت لأغفر ذمامي وأبطل وفائي فافعل ما شئت"، فذبح ولده والسموأل ينظر. فلما امتنع الحصن على ملك كنده عاد خائبًا، وأما السموأل فصبر على ما تحمّله من الثكلى محافظةً على الوفاء ولم يسلّم الوديعة إلا إلى ورثة امرئ القيس.

ومن قبيل الوفاء بالعهد وحفظ الذمام أيضًا "**الجوار**" قإنّ البدوي يحافظ على جاره محافظته على نفسه. والمقصود بالجوار في الأصل أن يحافظ الرجل على جاره القريب، وهو من قبيل التعاون الطبيعي حتى قيل: "جارك القريب ولا أخوك البعيد". ولكنّ العرب توسّعوا في ذلك حتّى شقّوا منه الإجارة والإستجارة والجوار، وكلّها بمعنى الحماية والحفظ، مع أنّ اصل المادّة "جار" يفيد عكس ذلك، واستعاروا الجوار للحماية على الإطلاق، فإذا خاف أحدهم سوءًا جاء الى رجل يحميه، ويكفي أن يقول له: "أجرني" فيجيره بقدر طاقته، وقد يفرط في أهله ولا يفرط في جاره (زيدان، لا تاريخ، المجلد الثاني، ص. 309).

وقد اشتهر كثير من الشعراء الجاهليّين بالكرم الفيّاض، مثل حاتم الطائي الذي ضُربت الأمثال بكرمه، وهو يصوّره في كثير من شعره كقوله:

إذا ما بخيلُ الناسِ هَرَّتْ كِلابُهُ
وشقَّ على الضّيفِ الغريبِ عقورُها
فإنّي جبانُ الكلبِ بيتي موطَّأٌ
جوادٌ إذا ما النّفسُ شحَّ ضميرُها

وكانوا لا يقدّرون شيئًا كما يقدّرون الوفاء، فإذا وعد أحدهم وعدًا أوفى به

وأوفت معه قبيلته بما وعد، ومن ثمّ أشادوا بحماية الجار لأنه استجار بهم وأعطوه عهدًا أن ينصروه. وبلغ من اعتدادهم بهذه الخصلة أن كانوا يرفعون لمن يغدر منهم لواء في مجامعهم وأسواقهم، حتّى يلحق به عار الأبد. يقول الحادرة لصاحبته سميّة:

أَسُمَيَّ – ويحكِ – هل سمِعْتِ بِغَدْرةٍ
رُفِعَ اللّواءُ لنا بها في مَجْمَعِ

فهم لا ينكرون شيئًا مثل إنكارهم للهوان والضّيم (ضيف، 1960، ص. 69).

وكان العربي في الجاهليّة صاحب أنفة وشرف يأبى الضّيم ويغار على العرض، إذا قال فعل وإذا وعد وفى، وإذا اضطر الى رهن في أمر عظيم رهن قوسه، ولا قيمة للقوس بنفسها، ولكنّها عندهم شرف الرجل، فهو قائم بما رهنها له مهما كلّفه. وكانوا يفتخرون بالعفّة خلافًا لما ثارت إليه طبائعهم حين امتزجوا بالموالي من الأمم الأجنبيّة. وتمثيلًا للفرق بين الحالين، قابِل ما قاله عنترة بما قاله أبو نوّاس الفارسيّ، قال عنترة:

وأغضُّ طرفي ما بَدَت لي جارتي
حتى يُواري جارَتي مأواها

وقال أبو نواس:

كان الشّبابُ مطيّةَ الجهلِ
ومُحَسِّنَ الضّحكاتِ والهزلِ

ولذلك قَلَّ التهتّك في تغزّلهم، وبعض القبائل تعدّ الغزل رذيلة (زيدان، 1978، ص. 86).

وكان سادتهم يمثّلون هذه الخصال جميعًا في أقوى صورها، مضيفين إليها حنكة وحكمة بالغة، وقد اشتهر من بينهم حكّام تجاوزت ألمعيّتهم حدود قبائلهم، مثل عامر بن الظّرب وأكثم بن صيفي، وكانت تفزع إليهم القبائل في خلافاتها الكبيرة التي يصعب حلّها في دائرة قبائلهم وشيوخهم، وقد يفزعون فيها الى الكهنة والعرّافين.

على أنّ هناك آفات كانت تشيع في هذا المجتمع الجاهلي، لعلّ أهمّها **الخمر واستباحة النّساء والقمار**، ونحن نجد الخمر تجري على كلّ لسان، وقد اشتهر بالحديث عنها وعن كؤوسها ودنانها وحوانيتها ومجالسها أعشى قيس وعدي بن زيد العبادي الحيريّ، وعرض لها كثيرون في أشعارهم مفاخرين بأنّهم يحتسونها ويقدّمونها لرفاقهم، وأكثر من كان يتجرّبها اليهود والنصارى، وكانوا يجلبونها لهم من بُصْرى وبلاد الشام ومن الحيرة وبلاد العراق، وكان من الشباب من يدمن عليها حتى تنفر منه قبيلته، وقد تخلعه لما يتدنّى فيه من رذائل، على نحو ما يروى عن الأبرّاض إبن قيس الكناني أحد أدلاء القوافل في الجاهليّة، إذ كان سكّيرًا فاسقًا، فخلعه قومه وتبرّأوا منه، ويقول طرفة في معلّقته:

وما زالَ تَشرابي الخمورَ ولذّتي
وبيعي وإنفاقي طريفي ومُتْلَدِي
إلى أن تحامَتْني العشيرةُ كلُّها
وأفرِدْتُ إفرادَ البعيرِ المُعَبّدِ
ولولا ثلاثٌ هنّ من عيشةِ الفتى
وجدِّكَ لم أحفِلْ متى قام عُوّدي

(ضيف، 1960، ص. 70).

وكان في الجاهليّة نوعان من النساء: إماء وحرّات، وكانت الإماء مثيرات، وكان منهنّ عاهرات... كما كان منهنّ جوارٍ

يخدمن الشريفات، وقد يرعين الإبل والأغنام. وكنّ في منزلة دانية، وكان العرب إذا استولدوهنّ لم ينسبوا الى أنفسهم أولادهنّ، إلا إذا أظهروا بطولة تشرّفهم على نحو ما هو معروف عن عنترة بن شداد، فإنّ أباه لم يلحقه بنسبه إلا بعد أن أثبت شجاعة فائقة ردّت إليه اعتباره. وكان الجاهليون يصحبونهنّ معهم في الحرب، وكنّ يشددن من عزائمهم بما ينشدنه من أناشيد حماسيّة، حتى إذا قتل فارس ندبته ندبًا حارًا حاضناتٍ على الأخذ بثأره والإنتقام من قَتَلَتِهِ. ونلمح في هذا الباب أسماء كثيرات على رأسهنّ الخنساء ومراثيها في أخويها صخر ومعاوية مشهورة. وكنّ يستشطن غضبًا إذا رضيت العشيرة بأخذ الديّة، حقنًا للدماء، على نحو ما تصوّر ذلك كبشة أخت عمرو بن معد يكرب، وقد قتل أخٌ لها:

فإنْ أنتم لم تَثْأروا واتّدَيْتُم
فمشّوا بآذانِ النعامِ المُصَلَّمِ

(ضيف، 1960، ص. 72–73).

وكان جمالهنّ يثيرهم، ويُنطِق ألسنتهم بوصفه ووصف ما كنّ يتزيّنّ به من طيبٍ وحلى وثياب على نحو ما تصوّر ذلك معلّقة امرئ القيس إذ يقول:

وتُضْحِي فَتِيتُ المِسْكِ فوقِ فراشِها
نؤومُ الضّحَى لم تَنْتَطِقْ عن تَفَضُّلِ

ويقول المنخّل اليشكريّ في فتاته:

الكاعِبُ الحسناءُ تَرْ
فُلُ في الدِمقْسِ وفي الحرير

ولم يقفوا على جمالها الجسدي، فقد فطنوا الى جمالها المعنوي وما تتحلّى به من شيمٍ وخصال كريمة، على نحو ما يقول الشّنفريّ في زوجته أميمة:

لقد أَعجَبَتْني لا سقوطًا قناعُها
إذا ما مَشَتْ ولا بذاتِ تلفُّتِ
تبيتُ – بُعَيْدَ – النَوْمِ – تَهْدِي عبوقَها
لجارَتِها إذا الهديَّةُ قلَّتِ

إنها مثال **العفّة والجلال**، وإنّ الحديث العَطِر عنها في العشيرة يملأ زوجها زهدًا وخيلاء، إنه ليرفعها عن كلّ شكّ وتهمة، فإذا أمسى وعاد إليها من المرعى أو بعد رحلته الطويلة، عاد قرير العين بها سعيدًا، فلا يسألها أين كانت لأنها موضع ثقته. وكانوا دائمًا يفتتحون قصائدهم بذكرهنّ وما كان لهم من ذكريات معهنّ في بعض المعاهد والمنازل، ويحجزون ذلك بالدّموع، على نحو ما يقول امرؤ القيس في مطلع معلّقته:

قفا نبكِ مِنْ ذِكرى حبيبٍ ومنزلِ
بِسقْطِ اللّوى بينَ الدَّخولِ وحَوْمَلِ

(ضيف، 1960، ص. 75).

ولم يكن صيد الوحش همّ شجعانهم وفرسانهم، إنّما كان همّ فقرائهم ومعوزيهم، ولذلك كان يأتي في المرتبة الثانية من غزوهم ونهبهم اللّذين يدلان على بطولتهم واستبسالهم، ولعلّ ذلك ما جعل عمرو بن معد يكرب يهجو قومًا بأنّهم يعيشون على الصّيد، إذ يقول:

أَبَنِي زيادٍ أَنْتُمُ في قَوْمِكُم
ذَنَبٌ ونحنُ فروعُ أصلٍ طيّبِ
نَصِلُ الخميسَ الى الخميسِ وأنتمُ
بالقهرِ بينَ مربَّقٍ ومُكَلَّبِ

(ضيف، 1960، ص. 80).

وتمتلئ كتب الأمثال والأدب بما دار على لسان لقمان وغيره من حكماء الجاهليّة من **حِكم**، مثل قول أكتم: "مقتل الرجل بين فكّيه"، وقول عامر بن الظّرب:

"ربّ زارع لنفسه حاصد سواه".

وفي الشّعر الجاهلي كثير من هذه **الحكم**، وهي تذكر في ثنايا كلامهم من مثل قول طرفة في معلقته:

أرى العيشَ كنزًا ناقصًا كلَ ليلةٍ
وما تنقُصُ الأيامُ والدّهرُ يَنْفدِ

ومما اشتهر بهذه الحكم الأفوه الأودي ولبيد وعبيد بن الأبرص، وفي خاتمة معلّقة زهير طائفة كبيرة منها على شاكلة قوله:

وأَعلَمُ عِلْمَ اليومِ والأمسِ قَبْلَهُ
ولكنَّني عنْ عِلْمِ ما في غدٍ عَمِ
ومَنْ لا يُصانِعْ في أمورٍ كثيرةٍ
يُضَرَّسْ بأنيابٍ ويوطأْ بِمَنْسِمِ
ومَنْ لا يَذُدْ عن حَوضِهِ بِسلاحِهِ
يُهَدَّمْ ومَنْ لا يَظْلِمِ الناسَ يُظْلَمِ

وكان أكثر حكمهم يستقى من مروءتهم وسننها، وهي تجري مجرى التعاليم التي ينبغي أن يأخذوا بها في حياتهم، وقد وقف شعراؤهم كثيرًا عند فكرة الحياة والموت والدّهر وما يرمي به الناس، وكانوا يرون أنّه لا مفرّ من الموت ولا حيلة منه، فلا ينفع إزاءه صحّة ولا شباب ولا قوّة. (ضيف، 1960، ص. 87).

وقد وصف الجاهليون **البرق والمطر**، ويقول امرؤ القيس من المعلقة:

أصاحِ تَرى بَرْقًا أُريكَ وَمِيضَهُ
كلمعِ اليدينِ في حَبّيٍ مُكَلّلِ
يُضيءُ سناهُ أو مصابيحُ راهِبٍ
أمالَ السّليطَ بالذّبالِ المُفَتّلِ

(خفاجي، 1973، ص. 279).

وقد تناول أوس بن حجر وصف القوس مذ كانت غصنًا في شجرة، فقال إنّ هذه الشّجرة التي أخذت منها القوس كانت نابتة على جبل أشمّ يجلّله السّحاب، وهذا الجبل أملس كأنّ صخوره أرويت بدهن تَزْلَجُ منه قدم مَنْ يصعد إليه، وهو يزيد أنّ الشجرة بعيدة المنال، فالقوس المأخوذة منها نادرة، وهي أحسن الأقواس المعروضة للبيع أو المعدّة للحرب. وهو الذي قال:

ومَبْضوعةٍ من رأسِ فَرْعِ شظيّةٍ
بطَوْدٍ تراهُ بالسّحابِ مُجَلَّلا
على ظهرِ صفوانٍ كأنَّ مُتُونَهُ
عَلَلْنَ بِدهْنٍ يزلقُ المُتَنَزّلا
يُطيفُ بها واعٍ يُجَسّمُ نفسَهُ
لِيَكْلأَ فيها طَرفَهُ مُتَأَمّلا

(خفاجي، 1973، ص. 285).

ومن المعاني في **وصف القوس** يقول الشماخ ابن ضرار:

تَخَيَّروها القوّاسُ مِن فَرعِ ضالَّةٍ
لها شَذَبٌ مِن دونِها وحَزَائِزُ
نَمَت في مَكَانٍ كَنَّها فاسْتَوَتْ بِهِ
وما دوْنَهَا مِنْ غَيْلِهَا مُتلاحِزُ
فَمَا زَالَ يَنْحو كُلَّ رطبٍ ويابِسٍ
ويَفْعَلُ حَتَّى نَالَهَا وهْوَ بارزُ

(خفاجي، 1973، ص. 288).

وفي **وصف الفرس** يقول امرؤ القيس في مطلع قصيدته:

خَليلَيَّ مُرَّا بي على أُمِ جُنْدَبِ
لنَقْضِيَ لُباناتِ الفؤادِ المُعَذّبِ

ثمّ يقول في وصف فرسه، وكيف طارد ثيران الوحش ونعاجه حتّى أدركها، وهي بين عاثرٍ سقط على جبينه، ومتّقٍ بقرنه الذلق الّذي يشبه حدّ المخرز:

وقدْ أغْتَدِيْ والطَيْرُ في وُكُنَاتِهَا
وماءُ النَّدَى يجري على كلِّ مُذْنِبِ
بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأوابِدِ لاَحَهُ
طِرَادُ الهَوادي كُلَ شَأْوٍ مُغَرّبِ

(خفاجي، 1973، ص. 290).

وفي **الضيف المستنبح** يروي لنا عتيبة بن بجير الحارثي قصّة ضيف مستنبح، وهي قصّة من قصص الكرم – أضلّه صدى صوت الكلاب، فمسح بجير رغاء ناقته ونباح كلاب الحيّ، فسأله أهله، فقالوا غريب طوّحت به الصحراء والخطوب، فنهض بجير للقائه ونجدته ونادى ابنه شبلًا، فلبّى نداءه، لأنّ الكرم سجيّتهم. وقد يكرمون من يعادون، وقام متهلّلًا، فنحر من نوقه الباقيات، وطالما نحروا من نوقهم وأهانوها ليصونوا أعراضهم:

ومُسْتَنْبِحٍ باتَ الصَّدَى يَسْتَتيهُهُ
إلى كُلِ صَوْتٍ فَهْوَ في الرَّحْلِ جَانِحُ
فقُلتُ لأَهْلي: ما بِغَامُ مَطِيَّةٍ
وسَارٍ أَضَافَتْهُ الكِلابُ النَوَابِحُ

(خفاجي، 1973، ص. 297).

– **المعاني والأخْيِلَةُ**

تحدث الجاهليون في شعرهم عن الصحراء والسماء، والدمن والأطلال، والكثبان والرمال، والسحاب والسراب، والأباعر والغزلان، والخيل والحمر. ونحو ذلك ممّا وقعت عليه عيونهم في حياتهم البدويّة، وما فرضته عليهم طبيعتهم من حرب وسلم، وعرف وتقاليد. تنعكس على أدبهم صورة البيئة والمجتمع إنعكاسًا صادقًا صحيحًا.

والمعاني الجاهليّة بسيطة لا تركيب فيها ولا تعقيد، مستمدّة من البيئة العربيّة ومظاهرها الحسيّة، فلا أثر للمعاني العقليّة فيها، ولا مظهر للمعنى المركّب، وإنّما هي معانٍ حسّيّة تتعدّد أحيانًا كقول امرىء القيس:

كأنَّ قُلوبَ الطيرِ رَطْبًا وَيَابِسًا
لَدَى وَكْرِهَا العِنَّابُ والحَشَفُ البالِيْ

وقد مازتها حياة الجاهليين وصراحتهم وصدقهم لسمة البساطة والصدق والوضوح، فهم لا يتعمّقون في استحضار المعنى، وإنّما يتناولونه في سهولة ورفق من بيئتهم، من غير كدّ قريحة، ولا عناء فكر. فهم يصوّرون الأشياء بصورها الصادقة، فلا يوغلون في التصوير، ولا يغلّون في الفكر غلوًا مرذولًا. وإنّما يلتزمون الصدق الّذي ينشده حسان أو زهير في قوله:

وإنَّ أَصْدَقَ بيتٍ أنْتَ قائِلُهُ
بيتٌ يقالُ – إذا أَنْشَدْتَهُ – صِدْقَا

(خفاجي، 1973، ص. 313).

فإذا مدحوا لم يكذبوا، وإذا هجوا لم يقذعوا، وإذا رثوا لم يشرقوا بالدمع أو يشرق بهم الدمع، كما يقول المتنبي:

حتّى إذا لمْ يَدَعْ لي صِدْقُهُ أَمَلًا
شَرِقْتُ بِالدَمْعِ حتى كادَ يُشْرِقُ بي

ولم يشيّعوا الشمس بتشييع الميت كما يقول شوقي في رثاء سعد:

شَيَّعوا الشَمسَ ومَالوا بِضُحَاهَا
وانْحَنَى الشَرقُ عَلَيْهَا فبكاهَا

ولم يتخيّلوا أنّ الشمس قد مرضت، وأنّ الأرض قد زلزلت، وأنّ الأنهار قد غاضت، وأنّ السماء قد انطبقت على الأرض. كما يقول البحتري في الرثاء:

والشمسُ في كبِدِ السَماءِ مَريضَةٌ

والأرضُ واجِفَةٌ تَكادُ تَمُورُ

(خفاجي، 1973، ص. 314).

ولم تتنزه فروسيتهم إجمالا عن الكبرياء والعنجهية وغلاظة الطبع، ولا سلِم سخاؤها من الطمع في الأسلاب والتكالب على إقتسام الغنائم ويصف امرؤ القيس محبوبته بالنعومة والبضاضة، حتّى إنّ النمل الصغير لو مشى فوق ثوبها لأثّر في جسمها:

مِنَ القَاصِرَاتِ الطَرْفُ لَوْ دَبَّ مُحْوِلٌ

مِنَ الذَرِّ فَوْقَ الإِتْبِ مِنْهَا لأَثَّرَا

ونلاحظ في المعاني الجاهليّة ضعف التماسك، ووهن الارتباط، وقلّة العناية بسياق الفكر، فمساق الأبيات مفكّك، وعلائق المعاني واهية، فإذا حذفت أو قدّمت أو أخّرت لم تُشوّه القصيدة، ولم يختل المعنى، ولم يضع الغرض. فأنت تستطيع أن تحذف أو تقدّم بيتًا عن بيت في قول امرىء القيس مثلًا في فرسه:

كَأَنَّ سِرَاتَهُ لدى البيتِ قَائِمًا

مَدَاكَ عَروسٍ أو صَلايَةُ حَنْظَلِ

وهم يكثرون من الإستطراد في قصائدهم، والإنتقال من معنى إلى آخر دون تمهيد أو مناسبة، إلاّ مثل قولهم (فدع ذا وسلِ الهَمَّ عَنْكَ بِحَسْرَةٍ) أو (فعد عما ترى) ونحو ذلك. وكل ذلك راجع إلى بداوتهم، وكثرة ارتحالهم الذي يجعل القصيدة من شعرهم كالصحراء ينتقلون فيها دائمًا من غرض إلى غرض. كما أنّ عدم معرفتهم بالترتيب المنطقي أو النظر الفلسفي جعلهم لا يرون الأشياء إلاّ مجرّدة لا تجمعها علاقة ولا ينظّمها سلك (خفاجي، 1973، ص. 317).

- علم النجوم

إنّ معرفة العرب بالنجوم مشهورة، فقد رأيت أنّهم عرفوا السيّارات والأبراج، وعرفوا عددًا كبيرًا من الثوابت، ولهم في ذلك مذهب يختلف عن مذاهب المنجّمين في الأمم الأخرى. أمّا منازل القمر فقد قسموها إلى ثمانية وعشرين قسمًا خلافًا لما كان عند الهنود فإنّها 27 قسمًا عندهم. ولا غرابة في إتقانهم معرفة النجوم ومواقعها، فإنّها كانت دليلهم في أسفارهم وأكثر أحوالهم.

- الأنواء ومهاب الرياح

ويراد بالأنواء عندهم ما يقابل علم الظواهر الجوّيّة عندنا، ممّا يتعلّق بالمطر والرياح، ولكنّهم كانوا ينسبون الظواهر المذكورة إلى طلوع الكواكب أو غروبها، ولذلك كان علم الأنواء فرعًا من علم النجوم. ومن أقوالهم في ذلك:

والدَهْرُ فاعْلَمْ كُلُّهُ أَرْبَاعُ

لِكُلِّ رُبْعٍ واحِدٍ أَسْبَاعُ

وكُلُّ سَبْعٍ لِطُلوعِ كَوْكَبِ

ونوءِ نَجْمٍ سَاقِطٍ في المَغْرِبِ

ومِنْ طُلُوعِ كُلِ نَجْمٍ يَطْلَعُ

إلى طُلُوعِ ما يَليهِ أَربَعُ

مِنَ اللّيَالي ثَمَّ تِسْعٌ تَتْبَعُ

(زيدان، المجلّد الثاني، لا تاريخ، ص. 15)

وكان عندهم لمطلع كل كوكب أو منزل وصف يدلّ على تأثير ذلك في الطقس على اعتقادهم، ومن هذا القبيل اعتقادهم تأثير النجوم في أعمال البشر على ما كان عند الكلدان على أنّهم كثيرًا ما كانوا يستدلّون على المطر أيضًا بألوان الغيوم وأشكالها، فأقلّ الغيوم مطرًا عندهم البيضاء ثمّ الحمراء ثمّ السوداء، ومن أقوالهم:"السحابة البيضاء جفل، والحمراء عارض، والسوداء هطلة".

- الميثولوجيا

ممّا يلحق بعلم النجوم أيضًا ما يُعبّر عنه الإفرنج بالميتولوجيا، وهي عبارة عمّا كانوا يزعمون وقوعه بين الكواكب – أو هي الآلهة عندهم – من الزواج أو الحروب أو نحو ذلك ممّا يجري على البشر على نحو ما ذكروه عن آلهة اليونان. فالعرب ألّهوا الأجرام السماويّة وعبدوها، وقد ضاع خبر ذلك لعدم تدوينه، على أنّنا نستدلّ عليه من بعض ما وصل إلينا من أسماء أصنامهم وعبادة بعض رجالهم. أمّا تشخيص تلك الأجرام وإنزالها منزلة البشر فقد كان معروفًا عند العرب. (زيدان، لا تاريخ، ص. 18).

- الكهانة والعرّافة

هما نقطتان لمعنى واحد، وفرّق بعضهم بينهما فقال أنّ الكهانة مختصّة بالأمور المستقبليّة، والعرّافة بالأمور الماضية. وعلى كلّ حال فالمراد بهما التنبّؤ واستطلاع الغيب.

والكهانة من العلوم الدخيلة على العرب، جاءتهم من بعض الأمم المجاورة لهم، والغالب في اعتقادنا أنّ الكلدان حملوها إليهم مع علم النجوم. ويؤيّد ذلك أنّ الكاهن يُسمّى في العربيّة أيضًا "حازي" أو "حزاء"، وهو لفظ كلداني معناه الإشتقاقي الناظر أو الرائي أو البصير، وهو يدلّ عندهم على الحكيم والنبي. وأمّا لفظ "الكاهن" فقد اقتبسه العرب بعدئذ من اليهود الّذين نزحوا إليهم على أثر ما أصابهم من النكبات في أورشليم (بيت القدس). وأمّا الكهانة فأصلها من عند الكلدان، ولعلّ الّذين حملوا علم النجوم إلى العرب هم الكهنة الكلدانيّون أنفسهم، فكانت الكهانة من جملة ما حملوه إليهم.

فالعرب كانوا يعتقدون في الكهنة العلم بكل شيء، وأنّ ذلك يأتيهم بواسطة الأرواح، فمن كان منهم يعتقد التوحيد نسب ذلك إلى استطلاع الغيب عن أفواه الملائكة (زيدان، لا تاريخ، ص. 18).

- القيافة

من قبيل الكهانة أيضًا القيافة، لكنّها تختصّ بتتبّع الآثار والإستدلال منها على الأعيان، وهي قسمان: قيافة الأثر، وقيافة البشر. والأولى تختصّ بتتبّع آثار الأقدام أو الحوافز أو الأخفاف، والإستدلال من آثارها في الرمال أو التراب على أصحابها. وأمّا قيافة البشر فهي الإستدلال بهيئات أعضاء الشخصين على المشاركة والإتحاد بينهما في النسب والولادة وسائر أحوالهما، وهي من قبيل الفراسة. (زيدان، لا تاريخ، ص. 21).

- الطب في الجاهليّة

كان التطبيب عند العرب من جملة أعمال الكهّان. وهو من العلوم الّتي وضع أساسها الكلدان كهنة بابل، وهم أوّل من

بحث في علاج الأمراض. وعن الكلدان أخذت سائر الأمم القديمة وفي جملتها العرب. وكان التطبيب بالرّقى شائعًا في الأمم القديمة كلّها، وقد وجدوا في الآثار المصريّة كثيرًا من العزائم الّتي كانوا يصفونها لمعالجة المرضى: وجاء من أخبارهم أنّ كاهنهم كان إذا سار لمعالجة مريض صحبه خادمان يحمل أحدهما كتاب العزائم، والثاني صندوق العقاقير الطبّيّة وهم يعالجون بالإثنين معًا (زيدان، لا تاريخ، ص. 22).

- **الأمثال**

الأمثال من آداب العرب المهمّة لأنّها تجري على ألسنتهم مجرى الشعر. وهي عظات بالغة من ثمار الإختبار الطويل والعقل الراجح. قال أبو عبيد: "الأمثال من حكمة العرب في الجاهليّة والإسلام، وبها كانت تعارض كلامها، فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في النطق بكناية من غير تصريح، فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال: إيجاز اللفظ، إصابة المعنى، وحسن التشبيه" والعرب تُضَمِّن أشعارها وأقوالها الأمثال والحكم فتزيّنها كقول أبي ذؤيب:

فلا تَكُ كالثَّورِ الّذي دُفِنَتْ لَهُ
حَديدَةُ حَتْفٍ ثُمَّ أمسَى يُثيرُها

وبعضهم نظّم القصائد كلّها من الأمثال كأرجوزة أبي العتاهية التي سمّاها ذات الأمثال ولا تخلو أمّة من الأمثال المتوارثة في الأعقاب... لكنّ العرب يمتازون بأمثالهم المبنيّة على الحوادث، لأنّ الأمثال عندهم نوعان:

1- أمثال حكميّة كقولهم: الجار قبل الدار، والحرب خدعة، والخطأ زاد العجول، والعتاب قبل العقاب، ونحوها ممّا يتناقله الناس في الأعقاب، وترويها الأمم بعضها عن بعض. وأقدم مجموع لها أمثال سليمان، وأكثر الأمم أخذت عنه. وهي عند العرب مقتبسة من التوراة وأمثال الهند والفرس والروم، فضلًا عمّا يروونه عن أسلافهم وحكمائهم كأكثم بن صيفي وغيره، وينسبون أمثالًا كثيرة إلى لقمان.

2- الأمثال المبنية على الحوادث وهي خاصّة بهم، لأنّ الحوادث جرت لهم كقولهم: وافق شنّ طبقة، وقطعت جهينة قول كل خطيب، والصيف ضيعت اللبن، وسبق السيف العزل. (زيدان، 1978 ، ص. 51).

- **الطرد**

الطرد أو الشعر الّذي يقال في الصيد عرف منذ الجاهليّة حين كان الشاعر الجاهلي يصف مطاردته بجواده لحمار وحشي أو تتبّعه لظبي أو طائر، أو حين يصف صراع ظبي مع حمار وحشي، أو ما أشبه من أنواع الصراع التي تنشب بين الحيوان في الصحراء القاحلة الجرداء التي كانت تحيط به. وكان هذا الوصف بطبيعة الحال جزءًا من القصيدة التي يكتبها الشاعر الجاهلي في أغراض كثيرة من مدح إلى نسيب إلى هجاء إلى فخر، إلى غير ذلك من الموضوعات التي كان يخوض فيها. (هرارة،1981، ص. 493).

ولعلّ أقدم من حاولوا تقسيم الشعر العربي جاهليًا وغير جاهلي إلى موضوعات

ألّف فيها ديدانًا هو أبو تمام، فقد نظّمه في عشرة موضوعات هي: الحماسة، المراثي، الأدب، النسيب، الهجاء، والأضياف ومعهم المديح، والصفات والسير، والنعاس، والملح، ومذمّة النساء. وهي موضوعات يتداخل بعضها في بعض، فالحديث عن الأضياف إمّا أن يدخل في باب المديح أو في الحماسة والفخر، والسير والنعاس يدخلان في الصفات، كما تدخل مذمّة النساء في الهجاء، أمّا الملح فغير واضحة الدلالة. وجاء في باب الأدب بما يدلّ على أنّه يقصد به المعنى التهذيبي، غير أنّه أنشد فيه أبياتًا في وصف الخمر، وأغفل إغفالًا تامًّا باب العتاب والاعتذار (ضيف، 1960، ص. 195).

وجعل ابن رشيق موضوعات الشعر في كتابة العمدة تسعة وهي: النسيب، المديح، الإفتخار، الرثاء، الإقتضاء، الاستنجاز، العتاب، الوعد والإنذار، الهجاء والإعتذار.

ومن السهل أن يردّ موضوع الإقتضاء والإستنجاز إلى المديح، والوعيد والإنذار إلى الهجاء وأن يضمّ العتاب إلى الإعتذار، وأيضًا فإنّه نسى موضوع الوصف. ويقول أبو هلال العسكري: "وإنّما كانت أقسام الشعر في الجاهليّة خمسة: المديح، الهجاء، الوصف، التشبيه والمراثي، حتّى زاد النابغة فيها قسمًا سادسًا وهو الاعتذار فأحسن فيه" وهو تقسيم جيّد، غير أنّه نسي باب الحماسة، وهو أكثر موضوعات الشعر دورانًا على لسانهم (ضيف، 1960، ص. 195-196).

وفطر عرب الجاهلية على البساطة والبعد من التصنّع في كلّ شيء، شأن أهل البادية، لبعدهم عن شوائب المدينة. فهم على الفطرة الطبيعية، وعنوانها الصدق بكل معانيه، ويدخل فيه استقلال الفكر والشجاعة الأدبيّة والصراحة في القول والعمل. فلا يتكلّفون في لباسهم ولا طعامهم وشرابهم، ولا يتصنّعون في كلامهم، وإنّما يقولون ما يخطر لهم ويصوّرونه كما يتمثّل لمخيّلتهم بلا تنميق أو تأنّق. (زيدان ، لا تاريخ ، ص. 77).

- **خاتمة**

هكذا يمكننا القول بأنّ المعاني في الجاهلية كانت متشابهة في التعبير عن الأشياء، كونها مأخوذة من بيئة واحدة وعصر واحد بعيدًا من المدينة وضوضائها والتغيرات التي تحصل فيها. من هنا فإننا نجد للمعنى عدّة ألفاظ تعبّر عنها مما يجعل الشعراء يتشابهون في أوصافهن وغزلهم ومدائحهم وحكمهم، وفي كل الفنون الأدبية التي عرفت في الجاهلية والتي مثلت أصدق تمثيل حياة العرب ومعيشتهم في الصّحارى والأوعرة. ولما كان الأدب تعبيرًا عن البيئة والإنسان، فقد جاء الأدب الجاهلي ابن بيئته يمثّل في الفطرة والبداهة الشائعين في معاينة وأغراضه، وفي لغته وتصاويره. وكان الشاعر في هذا العصر لا يحاول تأليف معانيه، وإنما يرسلها إرسالًا يخلو من الترتيب والمنطق العقلي، وعمق التحليل، وهذا كلّه يعود الى طبيعة الجاهلي البعيدة من التصنّع والتكلّف والتزلّف، إضافة الى وضوح المعاني وفطريّتها

وخلوّها من التعقيد والتعمّق، كونها مأخوذة من محيط محدود بعيد من المدينة وأخلاقيات الموجودين فيها وتصرّفاتهم وبكلمة مختصرة، يتبيّن لنا أنّ الشعر الجاهلي كان كمرآة صادقة لحياة العرب في العصر الجاهلي، كونه يعبّر عن تنازع الشاعر مع بقائه، لأنّه يفصح عن الأزمات التي تعترض طريقه في الحياة، فيترجّح فيها بين الأمل واليأس، بين الرّضى بحكمة المصير الذي سيؤول إليه، والرفض لها والثورة عليها، وبالتالي فهو ذو معان فطرية بسيطة، لا عمق فيها ولا ترتيب، مأخوذة من المحيط الحسّي القريب الذي يعيش فيه الشاعر، كما أنها مأخوذة من خبرة صاحبها في الحياة الإجتماعية.

***

الهوامش

* تعدّ أطروحة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها – المعهد العالي للدكتوراه – الجامعة اللبنانية

***

لائحة المصادر والمراجع:

1) خفاجي م. (1973). الشعر الجاهلي، بيروت: دار الكتاب اللبناني.

2) زيدان ج. (لا تاريخ). تاريخ التمدن الاسلامي، المجلد الثاني، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة.

3) زيدان ج. (لا تاريخ). تاريخ التمدن الاسلامي، المجلد الاول، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة.

4) زيدان ج. (1978). تاريخ آداب اللغة العربية، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة.

5) هرارة. (1981). إتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، ط. 1، بيروت: المكتب الاسلامي.

6) ضيف ش. (1960). العصر الجاهلي، ط. 8، القاهرة: دار المعارف.

***

محمد الماغوط - نزار محمد فرحان صالح 1988